ثقيل وثقلاء

بقلم: محمد سعيد مولوي

يجد أحدنا في الحياة مزعجات كثيرة ولكن أكبر المزعجات التي لا يكاد يحتملها الإنسان ولا يطيقها هوالرجل الثقيل الذي يحل عليك فتحس أن جبالاً تجثم على صدرك، فبعض الناس لا عمل له ولا شيء يشغله. فإذا هو ينتقل من مكان إلى مكان يريد أن يفرج عن نفسه ويروح عن ضيقه من قلة عمله فيفد عليك بطلعته البهية وترى نفسك مضطرا إلى استقباله. ولو أنك قلت له: ارجع كما قال تعالى: ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ لنشر بين الناس غسيلا وسخا ويدعي أنك صاحبه، ولا يترك نقيصة إلا ويهبك إياها ويضيف أنك لئيم وبخيل لا تحب الضيوف ولا تكرمهم، وأنك من بخلك تتنفس من منخر واحد... وهكذا..

وإذا استقبلته فسيكون المجلس مملا مضجرا، فهو قد حضر يريد أن يمضي وقته، فإذا هو يفتح الحديث بالسؤال عن صحتك ويصبح طبيبا مستعدا لتقديم النصائح مجانا، فينصحك بتخفيف وزنك ومجانبة الأطعمة الدسمة حتى لا تصاب بجلطة قلبية، ويدعوك إلى إجراء التمارين والإكثار من السير والركض والسباحة، ثم يتحول إلى مهندس مجاني فينتقد وجود هذه النافذة في ذاك الجدار وأن حقها أن تكون في الجدار المقابل،وأن لون الدهان غير مناسب. وأن البلاط يحتاج إلى تلميع. وأن وأن.. إلخ. ثم ينتقل ليحدثك عن الأوضاع الاقتصادية ويحلل أعظم مشكلات الاقتصاد في العالم، ويتحدث عن الغلاء وأسبابه ونتائجه وطرق معالجته وعلاقته بالاقتصاد العالمي. ويعرج على الأوضاع السياسية الداخلية ويعري هذه الأوضاع ويبين سلبياتها وإيجابياتها. ويجعل دورا للقوى العالمية في إفساد الأوضاع الداخلية، ويطير إلى الحديث عن أمريكا وروسيا ودول الاتحاد الأوروبي وإسرائيل والدول العربية. ويتناول العلاقات الدولية. وفجأة تراه بدأ الحديث عن الطعام والطبخ وكيفية تصنيع الطعام والمواد المستعملة ومقاديرها وأسعارها وسبب ارتفاع بعضها وسبب انخفاض أسعار بعضها الآخر... هكذا.

هو يتكلم وأنت تتلوى وتتحرك يمنة ويسرة متضجرا ومتأففا. فلديك موعد أو أنك

مضطر إلى إنجاز عمل كتابي أو أدبي. أو أنك بحاجة إلى الراحة. أو أنه قد حان وقت طعامك.

وهو يلحظك متأففا ضجرا فلا يعيرك اهتماما ويبقى مثابرا على الكلام والأخذ والعطاء. كأنه آلة تسجيل لا تتوقف.. مثل هذا الرجل الثقيل والذي نسميه في العامية «الغليظ» كم كوانا بناره وقتلنا ببلادته وقلة فهمه وذوقه.

هذاالثقيل ابتلي به القدماء في الماضي كما ابتلينا به في الحاضر، فمله القدماء ونظموا الأشعار في وصفه، فهذا (الأعمش) إذا حضر مجلسه ثقيل يقول:

فما الفيل نحمله ميتا
بأثقل من بعض جلاسنا

علّ جليسه الثقيل يستحيي فيرحل ولكنه لا يفعل!

وأثقلَ رجلٌ على أبي نواس فقال فيه متأففاً:

يا من على الجلاس كالفتق
كلامك التخديش في الحلق
هل لك في مالي وما قد حوت
يداي من جُلّ ومن دِقّ
تأخذه مني كذا فدية
واذهب ففي البعد وفي السحق

وقال فيه أيضاً:

ثقيل يطالعنا من أممْ
إذا سره رغم أنفي ألمْ
أقول له إذ بدا لا بدا
ولا حملته إلينا قدمْ
فقدت خيالك لا من عمى
وصوتَ كلامك لا من صمم

على أن من ألطف ما نظم في الثقلاء ما قاله أحدهم في ثقيل أهدى الشاعر جملا فقال الشاعر يذكر ثقله:

يا مبرما أهدى جملْ
خذ وانصرف ألفي جملْ
قال: ومن يقودها؟
قلت له: ألفا رجلْ
قال: ومن يسوقها؟
قلت له: ألفا بطلْ
قال: وما لباسهم؟
قلت: حليٌّ وحللْ
قال: عبيد لي إذاً؟
قلت: نعم، ثم خولْ
قال: بهذا فاكتبوا
إذن عليكم لي سجلْ
قلت له: ألفي سجلْ
فاضمن لنا أن ترتحلْ
قال: وقد أضجرتكم؟!
قلت: أجل، ثم أجلْ
قال: وقد أبرمتكم؟!
قلت له: الأمر جللْ
قال: وقد أثقلتكمْ؟!
قلت له: فوق الثقلْ
قال: فإني راحلٌ
قلت: العجلْ، ثم العجلْ
يا جبلا من جبلِ
في جبلٍ فوق جبلْ

وحل رجل ضيفا على رجل وزوجته فأطال المقام حتى ملوه، وأثقل عليهم حتى أبغضوه، وحاروا كيف يتخلصون منه، وراحوا يسمعونه بعض الهمز واللمز لعله يخجل فيرحل، ولكنه كان قد اتخذ أذنا من طين وأخرى من عجين.

واصطنع الزوجان الخصومات، ولكن إحساس الرجل لم يتحرك ولم يخجل، وظل مقيما كالجبل يأكل ويشرب ويصدر الأوامر والطلبات.. وبلغ الضيق بالزوجين مبلغه فاتفقا على أن يصطنعا خصومة من أجل تنظيف الدار حيث يعترض الرجل على اتساخ الدار ويدعو زوجته إلى تنظيفها وترفض الزوجة وتطلب من زوجها أن يكون له نصيب من تنظيفها حتى إذا اشتدت الخصومة قرر كل من الزوجين مغادرة الدار إلى بيت أهله.

وهكذا بدأت التمثيلية، وعلا الصراخ، واشتد الصراع، والضيف مطل من نافذة الغرفة المقيم فيها ينظر ويسمع، حتى إذا أعلن كل من الزوجين الرحيل صاح بهما وقال: لا تختلفا. الرجل ينظف يوما. والمرأة تنظف يوما، وبذلك يكون العدل، ثم أغلق شراع النافذة، ومضى إلى سريره فاضطجع فيه! ■